الأستاذ : حميدي لخضر

أستاذ بقسم الفلسفة. جامعة المسيلة .

الفلسفة الديكارتية :

بما أن المعرفة قدر مشترك بين الناس بصرف النظر عن الجنس واللون والدين، فإننا نجد الناس يتفاوتون فيها. كما نجد أنواعا عديدة متشعبة من التفكير. فهذا التفكير العلمي ، وذاك التفكير الديني (اللاهوتي)، والآخر تفكير فلسفي، وما إلى ذلك. وكيف ما كان نوع التفكير يمكن القول أن المعرفة لا تخرج عن إطارين أو نمطين من التفكير، أحدهما يتجسد في المعرفة العادية و الآخر يتجسد في المعرفة العلمية.

فالمعرفة العادية : أو العامية كما يحلو للبعض تسميتها ، هي التي نلاحظها لدى العوام من الناس، وهي لا تتصف بالدقة والموضوعية ، ولكنها تعتمد على التجارب الشخصية لكل فرد من خلال تحقيقه لمختلف مآربه الذاتية ، وبذلك فهي لا تتجاوز الضرورة البيولوجية .

أما **المعرفة العلمية** : فتعتمد على الجهد العقلي وتذوق الحقيقة ، وهذا لن يتأتى لشخص لا يجهد نفسه ، ويفضل الجهل على إدراك الحقيقة ، بل لشخص يراقب نفسه على الدوام ويستعمل الصرامة المنطقية بلا هوادة ، ولا يقتنع بالمعارف الحاصلة لديه ، لأنه يدرك أن لا أحد يملك الحقيقة المطلقة فالاتكال على ما وصل إليه السابقون ، والاقتناع بما لدى الإنسان من مدركات ، من شأنه أن يؤدي إلى الجمود ويعرقل سير المعرفة البشرية .

وتعتبر مسألة المعرفة والمنهج من المسائل التي لها أهمية كبرى ، والتي شغلت العلماء والفلاسفة عبر العصور المختلفة من تاريخ الفكر البشري ، ولا يزال الاهتمام بها متواصلا إلى اليوم لأن

موضوعاتها دائمة الجدة ، فالبداهة الأولى ليست حقيقة أساسية ، والدليل على ذلك المواجهة إن جاز هذا التعبير القائمة بين : الفكر الفلسفي الكلاسيكي والفكر الفلسفي الحديث .

فالفكر الفلسفي القديم كانت المشكلة الرئيسية فيه مجسدة في مشكلة (الوجود)، حيث كان البحث آنذاك منصبا حول أصل العالم وتكونه وطبيعة الأشياء، مؤمنا بأن معارفه صحيحة بل ومقدسة، رافضا كل فكر فلسفي تحرري جديد.

أما الفكر الفلسفي الحديث والجديد ، وإن شئت المتحرر ، فهو يؤمن حقا بأن التطور الفلسفي والعلمي لا يكون إلا بالتخلص من رواسب الفكر الماضي ، والإيمان بالتفكير النقدي لأن اصطفاء الظواهر لا يقتضي من العالم تفكيرا انفعاليا أو تسليميا(Perceptif) ، وإنما أن يلاحظ الظواهر في شروط تمنع التزوير وإمكانية التشويه . فيصف الحادثة الأصيلة بتواضع وصبر ونزاهة كما هي عليه في دقائقها وعناصرها الجزئية، لا كما يجب أن تكون عليه. وهذا يقتضي بطبيعة الحال ، تنحية كل أنواع الذاتية ، بل تنحية الذات (Abnégation) والتزام الحيدة واستبعاد الاعتبارات الشخصية . فيندفع العالم إلى جمع الظواهر الأساسية وانتقاء أهمها. كما يجب على العقل في مسألة المعرفة أن يقف موقفا سلبيا ما أمكن ذلك، لأنه سيزيف العلم لو أدخل أي شيء من نفسه.

ويجب عليه أيضا أن ينحصر كل جهده في الوقوف من الظواهر موقف المرآة المستوية تماما والتي لا تشوبها شائبة ما حتى يعكسها دون أدنى تغير. فقد يؤدي الفضول بصاحبه إلى إتباع الهوى فينساق إلى الاضطراب ويقع في مهاوي الزلل .

غير أنه من الخطأ الشائع الاعتقاد بأن صاحب الموقف العلمي يقتصر على مجرد اصطفاء الظواهر أو التي هي موضوع دراسته. بل لا بد من معرفة مختلف العلاقات الثابتة التي تحكم هذه

الظواهر، والشك فيها بهدف إبعاد أي خلفية من الخلفيات المختلفة التي يحملها الدارس عن الموضوع، وبذلك يمكن القول أننا اكتشفنا موقفا علميا حقيقة.

وهذا الشك هو أول عمل يقوم به الباحث في مختلف مجالات المعرفة ، لأننا في معظم الأحوال نجد أنفسنا تحت طائلة جملة من الحتميات الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والسياسية وغيرها (كالأهواء والميول والرغبات والعواطف ... الخ) والتي تبعدنا عن الفهم السليم للأشياء والظواهر كما هي وعلى حقيقتها .

إن الذي يريد أن يبني بناء فرديا أو جماعيا، عليه بأساس وطيد، والذي يريد أن يحصد قمحا جيدا عليه أن يزرع بذورا صالحة، وهكذا. ولهذا واحتراما للروح العلمية كما يرى البعض ، لا بد للعالم أن يترك عباءته وخياله عند باب المخبر، وأن يشرع في الموضوع وكأنه يجهله تماما، ولذلك لا عجب إذا قيل: لكي نقوم باكتشافات لا بد أن نكون جاهلين ، خاصة وأن المعرفة البشرية ليست ثابتة ، بل متطورة عبر تاريخها .

وعلى هذا الأساس أصبحت (نظرية المعرفة) في محيط الفكر البشري تحتل مكانة كبيرة، بالغة الأهمية، أخذت الكثير، الكثير من وقت المفكرين، بل وأخذت الكثير من عقولهم ومؤلفاتهم.

وقد لا أبالغ إذا ما قلت أن اختلاف الناس فيما بينهم مصدره ذلك الاختلاف حول مسألة المعرفة ، وطبيعة الأمور وحقائقها ، وهذا نجم عنه أن أصبحت هذه المعرفة فيما بعد مثارا لنقاش و الجدل ، حيث صار كل مفكر أو فيلسوف يعتقد أن ما يراه ، أو ما يقرره هو، هو الحق بعينه وأن المعرفة الصحيحة الصادقة هي التي يتبناها ، وما يراه غيره هو الضلال و الباطل .

لقد أدت الأبحاث المتتالية حول موضوع المعرفة البشرية ، والذي صار يعرف لاحقا بـ: (نظرية المعرفة) إلى بروز مذاهب واتجاهات فلسفية مختلفة باختلاف مواقفها ، حيث نجد من

ذهب إلى أن المعرفة الحقة هي مطابقة لحقائق الأشياء وصورة دقيقة في عقولنا لما في الخارج بمعنى أن الحقيقة والواقع شيء واحد ، أي أنهما متطابقان ، وهذا ما ذهب إليه المذهب الواقعي الذي كان يرى بأن العالم الخارجي هو كما ندركه بواسطة قوى الإدراك.

وعلى النقيض من ذلك نجد أصحاب النزعة المثالية يرون بأن المعرفة لا صلة لها بالواقع، بل وبعيدة عنه، أي (أن ما في الأذهان مختلف تماما عما في العيان)، ناهيك عن مختلف المذاهب الأخرى.

ودون الذهاب بعيدا في هذه المسألة ، أقول أن جميع المذاهب آمنت بإمكانية الإنسان وقدرته على تحصيل المعرفة ، وإن اختلفت في أداة ووسيلة هذه المعرفة ، (المنهج) ، ولو أن الفيلسوف الألماني "كانط E Kant " شك في حقيقة إمكان المعرفة حينما لجأ إلى النقد كضرورة ملحة يقتضيها الخلاف القائم بين العقليين والتجريبيين وهو لا يقصد بالنقد ، نقد المذاهب الفلسفية المختلفة ، وإنما نقد العقل ذاته هذه المعرفة التي مثلت مشكلة كبرى ، هي أيضا تحتاج إلى وسيلة أو بالأحرى (منهجا) تصل به إلى الحقيقة، و يقيها شر الوقوع في الخطأ).

ولذلك حاول الفلاسفة عبر العصور ابتداء بأرسطو الذي وضع لنا آلة جميع العلوم تمثلت في منطقه ومبادئه (الأورغانون) . وكذلك فلاسفة العصر الحديث حاولوا أثناء فحصهم عن مكونات المعرفة وطبيعتها، وبحثهم عن الحقيقة اصطناع منهج يخلص الفكر كما ذكرت سابقا من المعارف التقليدية، بحيث لا يأخذ العقل فيها بتقليد القدماء. ونجد على رأس هؤلاء مجموعة من المفكرين والفلاسفة (فرانسيس بيكون غاليلي – ورينيه ديكارت) .

ونحن سنقف عند هذا الأخير (أي رينيه ديكارت René - Descartes (1596 – 1650) باعتباره أحدث ثورة عقلية في الفكر البشري ، وخاصة الأوروبي المسيحي ، حتى صار يلقب ب (مفجر العقلانية في أوروبا) . هذا الأخير أدرك تمام الإدراك أننا إذا لم نبتعد عن القديم، وعن التقليد، فسوف نظل في حالة سبات عميق، ولن تنتهي حالة السبات هذه. إلا

بزلزال عنيف يدك أرض التقليد دكا ويكون معبرا عن العقل ، ويحمل في طياته التجديد ، من خلال منهج قويم وسديد يحصن الفكر البشري من الزلل والأخطاء .

في البداية لا أخال أن هناك جامعي لا يسمع أو يعرف ولو قليلا عن (ديكارت) فالرجل في اعتقادي لا يحتاج إلى التعريف أو التنويه به ، ويكفيه فخرا مؤلفه الشهير (مقالة الطريقة لحسن قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم) ، كما يكفيه أيضا لقبه (أبو الفلسفة الحديثة) .

وفلسفة (ديكارت) واسعة وشاملة منها ما هو طبيعي ، ومنها ما هو ميتافيزيقي . ولذلك ليس من اليسير ومن السهولة الخوض فيها برمتها في موضوع كهذا ، ولكن أردنا من خلال هذا العمل التركيز على ناحيتين :

1- المنهج من جهة .

2- المعرفة من جهة أخرى .

لقد انبهر " ديكارت " بعلم الرياضيات منذ صغره وذلك لما تتميز به من بداهة ووضوح ودقة في النتائج كما حاول أن يحدث ثورة أو بالأحرى ما يسمى بالقطيعة La Rupture مع المعرفة الكلاسيكية ومنهجها ، بلغة الفرنسي (غاستون باشلارG - Bachelard)، وذلك بوضع منهج جديد يقي الفكر من الوقوع في الخطأ، فالخطأ حسب (ديكارت) لا يعود إلى العقل باعتباره (أعدل الأشياء توزعا بين الناس) هذه (القوة التي يطلق عليها في الحقيقة اسم العقل أو النطق ، واحدة بالفطرة عند جميع الناس) ، وإنما يعود إلى الطريقة التي يسلكها كل فرد في توجيه ذهنه أثناء بحثه عن الحقيقة . ولذلك نجده عندما مارس (ديكارت) الشك في بداية منهجه الفلسفي ، وضع نصب عينيه : أن لا شيء في المعرفة البشرية مطلق ، وأن لا طريقة من

الطرق التي توصل إليها القدماء معصومة ، بل الكل يخضع للفحص بما فيها معارفه التي تلقاها في مدرسة (لافليش – La Fleche) التي درس بها والتي كان يكن فيها الاحترام لأساتذته .

هذا الشك الديكارتي في الحقيقة لم يأت هكذا بغتة ، ولكن له دواعيه .

فما هي أسباب شكه هذا ودوافعه ؟

وهل أوصله فعلا إلى شيء كان يبحث عنه ؟

وكيف كانت نهايته ؟ هل استطاع فعلا بلوغ اليقين في نهاية المطاف الذي كان يبحث عنه ؟

قبل الشروع في هذا الموضوع أرى من الضروري أن نكون ولو فكرة موجزة عن مفجر العقلانية في أوروبا (رينيه ديكارت) فمن هو هذا الفيلسوف ؟

رينيه ديكارت René Descartes) ينحدر من أسرة من صغار الأشراف والموظفين المدنيين في مقاطعة (التورين Touron) ، فبعد أن لاحظ والده ذكاءه الحاد قام بإرساله إلى مدرسة (لافليش) اليسوعية الشهيرة ، التي أسسها (هنري الرابع) . ولما كان ضعيف البنية أظهر مواهب ملحوظة سمح له بمزايا غير عادية ، وسمح له بأن يدرس بطريقته الخاصة ، ثم كون بعد ذلك عادة وهي أن يقوم بمعظم عمله الهام وهو مضجع في الفراش صباحا ، وأن يدرس ويتأمل بنفسه ، وقد استمرت تلك العادة طوال حياته حتى ذهب إلى السويد .

وبعد أن أتم دراسته في (لافليش) عام 1614 ، دخل حياة اللهو والمرح حيث أحرز نجاحا كبيرا في لعبة القمار والتي ساعدته فيها مقدرته الرياضية وبرودة الحساب كما أصبح (ديكارت) عام 1618 ضابطا بجيش (موريس دي ناسو) الهولندي حليف فرنسا ،وعاش في مدينة بريدا

بهولندا، وتعرف هناك على شخص اسمه (إسحاق بيكمان) الذي كان له أثر كبير في حياته . ويبدو أن اهتمامه في ذلك الوقت كان بالدرجة الأولى صوب الرياضيات، وأراد تطبيقها في العمليات العسكرية، وبعد أن تقاعد عن الخدمة العسكرية عام1621باع الأملاك التي ورثها ووجد أنها كافية لكي يعيش عليها في رغد .

فكرس بقية حياته إذن في كتابة الموضوعات الفلسفية والرياضية والعلمية في باريس حتى عام 1629 حتى رجع إلى هولندا. هذا البلد الذي كان يعتبر الوحيد في أوروبا الذي يستطيع الباحث أن يعمل فيه سرا ولا يقلقه الزوار المحبون للإطلاع والمضطهدون الدينيون ، حيث مكث هناك عشرين سنة ، وأصبح أكثر الفلاسفة والرياضيين شهرة في عصره .

وفي عام 1649 دعته (كرستينا) ملكة السويد الشابة ، إلى بلاطها لكي يعلمها فلسفته ولقد كان مناخ الشتاء القارس محنة قاسية بالنسبة لفرنسي ذي دم حار ، لا سيما وأن الملكة اختارت الساعة الخامسة صباحا لدروسها مع الفيلسوف ، مما أدى إلى إصابته ببرد شديد في الرئتين وتوفي في العام التالي عام 1650 [1] .

لقد حاول (ديكارت) ومنذ البداية في مساره الفلسفي أن يبدأه بمنهج معرفي في التفكير وهو (الشك) الذي ينم عن استفهامات إنكارية سلبية يختبر بها صحة المعارف ليصدر العقل فيما بعد الأحكام عليها . هذا الشك كان في ماهيته عند أبي الفلسفة الحديثة بداية لمشروع ضخم لم يباشر فيه (ديكارت) حتى بلغ سنا بدا له أنه مناسب لتنفيذه فعقد العزم على تجسيد ذلك حيث نجده قد انتقل من الشك إلى اليقين الذي كان يرمي إليه باعتباره هدفه الأول . وما دام (ديكارت) توصل إلى اليقين بواسطة الشك كما سنرى ، فإنه يمكن حينئذ أن نستنتج أن هذا الأخير أصل من أصول بداية التجربة الفلسفية عنده (فلا فلسفة بدون شك ، ولا قيمة لرحلة الشك إن لم تكن لها نهاية بلوغ اليقين") . و لعل دافع المعرفة ، ودافع البحث عن منهج جديد

لدى (ديكارت) ، كان بمثابة الحافز القوي الذي دعاني إلى اختيار هذا الموضوع كما سبق وأن ذكرت .

يعتبر (ديكارت) إذن علما شامخا من أعلام الفكر الفلسفي في العصر الحديث ومرحلته تعتبر من المراحل الحاسمة في مسيرة الفكر الفلسفي والعلمي حيث تم فيها طرح مسألة (طبيعة المعرفة وماهيتها) ونقلها من البحث عن أصل الوجود إلى البحث عن طبيعة المعرفة في حد ذاتها ، والتي أصبحت تعرف فيما بعد (بنظرية المعرفة) وبذلك أحدث ثورة في الفكر الفلسفي عبر تاريخه ابتداء بالعصر الحديث .

وفي الأخير أشير وبغض النظر عن العوائق التي فرضتها علينا طبيعة هذا العمل ، وهذا الموضوع في ظل الأعمال المكثفة ، أنني لمست فيه الغموض والعمق الشيء الكثير ، إضافة إلى خصوصية مصطلحاته باللغة الفرنسية .

ومع ذلك حاولت على قدر استطاعتي أن يكون عملي هذا قد قلل على الأقل من درجة الغموض لدى طلبتنا الأعزاء ، ووضع حدا لشغفهم الكبير لإدراك ما لحق بمشكلة المنهج والمعرفة من تغيير وتبديل بل وتجديد في عصر التنوير، وعلى وجه أخص وأدق لدى فيلسوفنا (ديكارت) آملا التوفيق .

الشك عند (ديكارت) :

لقد كان (ديكارت) يؤمن بأن المشكلة ليست في العقل باعتباره أعدل الأشياء توزعا بين الناس . ولكن المشكلة في كيفية استخدام هذا العقل ، والطريقة التي يتبعها ، والمنهج الذي يسلكه . ولذلك نجده أولى اهتماما بالغا لمسألة المنهج الذي بدأه بالشك، لأنه خير للمرء أن يشك في كل

ما يصادفه، وأن يلقي كل ما بعقله في الخارج مؤقتا سواء في ذلك الأفكار الغامضة أو الواضحة. وبالمفيد المختصر لولا الشك ما تقدمت المعرفة البشرية خطوة واحدة.

عاش (ديكارت) في المرحلة التاريخية التي التقى فيها الشرق بالغرب في حركة النقل والترجمة واحتكاك الثقافة المسيحية بالثقافتين اليونانية والإسلامية ، واكتشاف الطباعة التي ساهمت في نشر العلوم وتنوير العقول . فقد اكتشف (غاليلي 1564 -1642) قانون سقوط الأجسام عام 1604 ، وصاغ (كبلر 1571 - 1630) قانون حركة الأجرام السماوية حول الشمس عام 1605، وعرف (وليام هارفي 1578 - 1657) الدورة الدموية سنة 1628، ناهيك عن أكبر اختراع ، والذي أحدث ثورة في مختلف المجالات خاصة الطب و البيولوجيا وغيرها ، والمتمثل في الميكروسكوب سنة 1590 .

كما علم الإصلاح الديني الناس كيف يثورون على الأحكام التي لا يقبلها العقل الفطري السليم ، مما أدى الاحتكام إلى العقل .

هذا الأخير أدى إلى تقويض سلطة الكنيسة الدينية والاجتماعية والسياسية التي تعيق حرية الفرد وإلى إلغاء الوصاية (الوساطة الإلهية) التي تجمد العقول وتحجرها وإلى انتقاد الملوك الذين أصبحوا كباقي البشر بعد ما كانوا يستبدون بالشعوب ويستعبدونهم باسم الإله والدين .

لقد وجد (ديكارت) نفسه حائرا ، مشدوها وسط هذا الزخم الكمي من المعارف وتنوعها فيها ما هو قديم متوارث ، ومنها ما هو جديد ، وفيها ما هو صحيح ومنها ما هو خاطئ .

هذا الكم المعرفي المترامي الأطراف والمتشابك ، والغموض الفلسفي والالتباس بين صلاح العلوم وفسادها (في غياب منهج جديد واضح ودقيق المعالم) ، كان سببا ضروريا حسب (ديكارت) لنقد الفلسفة التقليدية واللاهوتية ، والبحث عن منظومة فلسفية بديلة للفلسفة

الأرسطية المهيمنة على المنظومة الفكرية البشرية قرونا طويلة حيث أثبتت عقمها وجمودها في قوالب جاهزة تعادي حرية الفكر الفلسفي ، وتنافي الإبداع العلمي .

ومن هنا كان إيمان (ديكارت) بقدرة العقل في البحث ، وإيمانه بالوصول إلى اليقين هو الذي دفعه إلى غربلة مختلف المعارف التقليدية ، وحتى علوم زمانه ، بما في ذلك علوم مدرسة (لافليش) التي درس وتعلم فيها .

ولهذا راح يعيد النظر في الأسباب الأساسية التي قامت عليها هذه العلوم وفي هذا السياق يقول **<<لاحظت وليست ملاحظتي هذه بنت اليوم أنني تلقيت منذ سنواتي الأولى طائفة من الآراء الباطلة على أنها صحيحة ومن أجل ذلك حكمت بأنه يجب علي أن أقدم بجد مرة واحدة من العمر ، على تخليص نفسي من الآراء التي تلقيتها في الماضي ، وأن أعاود البحث من أساسه ، إذا أردت إقامة شيء ثابت وراسخ في العلوم >>** [2] . ويقول أيضا :

<< لقد كانت غايتي أن أثق بصحة ما أعلم، وأن أبني علومي على الصخر، والصلصال لا على المتحرك من الرمال >> [3].

ومن هنا إذا كانت الخطوة الأولى لهذا المنحى المنهجي الديكارتي الجديد هي الشك ، حيث أخضع له كل معارفه ، بل ويذهب (ديكارت) إلى أبعد من ذلك إذ نجده يوصي بقية العلماء ويحذرهم من الاعتقاد والإيمان لمختلف المدركات ما لم تكن واضحة وضوحا مطلقا ، و من ثمة لا بد من إخضاعها إلى الشك لأن هناك عوائق تحول دون إدراك الماهيات كما هي ، وفي ذلك يقول : **<< ربما كان هناك " شيطان ماكر" يعبث بعقلي ، فيريني الباطل حقا ، والحق باطلا ويجعلني أخطئ بالرغم مما قد يكون لدي من يقين عقلي ، ولكني أستطيع أن أحمي**

نفسي من هذا الشيطان الماكر ، إذا عزمت منذ الآن على رفض كل قضية يخالجني الشك فيها >> [4].

ولذلك نجده عندما أراد تأسيس منهجه الجديد، جعل أول قاعدة من قواعده تنص على ما يلي: **<< أن لا أتلقى على الإطلاق شيئا على أنه حق ما لم أتبين بالبداهة أنه كذلك أي أن أعني بتجنب التعجل والتشبث بالأحكام السابقة ، وأن لا أدخل في أحكامي إلا ما يتمثل لعقلي في وضوح وتميز لا يكون لدي معهما أي مجال لوضعه موضع الشك >>** [5].

وكأن (ديكارت) جعل من الشك مصفاة أو غربالا يعمل به على تنقية المعارف ، حتى يتخلص من المعارف التقليدية والمعارف المزيفة ، و لا يبقى في النهاية لدى الإنسان إلا المعارف اليقينية .

هذه المعارف اليقينية تصبح فيما بعد قناعة لدى (ديكارت)، ونهجا يمشي عليه طول حياته والدليل على ذلك ما يقوله هو شخصيا :

<< وكانت رغبتي شديدة دائما في أن أتعلم كيف أميز الحق من الباطل كي أكون على بصيرة في أعمالي ولكي أسير على هدى في حياتي >> [6].

ولعل من هذه المعارف التي كان معجبا بها نجد المعارف الرياضية والتي كان هو أيضا نفسه رياضيا بارعا ومرموقا فيها، اكتشف الهندسة التحليلية، والتي أوحت له بالسؤال التالي:

لم لا يمكن ابتكار منهج للفلسفة يشبه ذلك المنهج الدقيق الذي يستخدم في الهندسة بنجاح قائم في أساسه على العقل؟ والدليل على ذلك قوله :

<< كنت معجبا بالرياضيات خاصة لما في حججها من يقين وبداهة، ولكني لم أكن مدركا بعد فائدتها الحقيقية. ولما رأيت أنها لا تنفع إلا في الصناعات الميكانيكية، عجبت لأمرها كيف تكون أسسها ثابتة ومتينة إلى هذا الحد، ولا يشاد عليها بناء أسمى من هذا البناء >> [7].

هذه الرياضيات هي علم يقوم في أساسه على العقل. وهذا العقل كما يقول هو: (أعدل الأشياء توزعا بين الناس)[8] وهو كذلك:

<< الراجح أن يكون هذا شاهدا على أن قوة الإصابة في الحكم، وتمييز الحق من الباطل، هي القوة التي يطلق عليها في الحقيقة اسم العقل >> [9].

وهكذا إذن كما نلاحظ كان (ديكارت) لا يؤمن إلا بميزان العقل ، وكأن ديكارت يجاري ما كان يقوله (المعري) حرفيا : (كذب الظن لا إمام سوى العقل) ، إذ جعل منه مبدأ المبادئ إن جاز هذا التعبير، ومبدأ عاما يحتكم إليه في مختلف مجالات المعرفة .

ولذلك لما كان (ديكارت) يؤمن بالأفكار الفطرية الواضحة ، والتي لا ينتابه الشك فيها وحينما أراد وضع منهجه ، حدد معالمه بشكل جلي في أربعة قواعد أساسية هي كالتالي :

- قاعدة البداهة L'évidence
- قاعدة التحليل L analyse '
- قاعدة التركيب Synthèse
- قاعدة الإحصاءEnumération .

والملاحظ لقواعده الأربعة ليرى كيف أن (ديكارت) انطلق من القاعدة الأولى التي تقضي في نظره على كل شك واحتمال، ذلك أن الأشياء حينما تبلغ درجة من الوضوح يستحيل أن نجد ما هو أوضح منها للبرهنة عليها نقول عندئذ أنها حقيقة ، أي كل ما هو بديهي هو حقيقي ، وكل ما هو حقيقي يقنعني ، أي لا أقتنع إلا بما هو بديهي ، وبما هو واضح لأن تبيين الواضح أحيانا من أعظم الفضائح كما يقال . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن هذا الشك الديكارتي لم يكن إلا وسيلة ودعوة إلى إنكار ما تلقيناه من العلوم التي كانت تبدو لنا صحيحة حتى يبدو لنا معيار اليقين ، وبطريقة أخرى لا نقوم بعملية الهدم لذات الهدم ، ولكن من أجل البناء على أساس ثابت الأركان ولذلك كان يقول :

<< ولكني ، فيما يتعلق بجميع الآراء التي أخذت بها إلى ذلك العهد ، لم أجد بدا من محاولة انتزاعها من ذهني دفعة واحدة ، وذلك لأستبدل بها غيرها مما هو خير منها ، أو لأعيدها هي نفسها إليه بعد ذلك ، بعد أن أكون قد سويتها بميزان العقل >> [10] .

لقد كان (ديكارت) ومنذ دخوله مدرسة (لافليش) للآباء اليسوعيين و التي كانت من أكبر المدارس وأشهرها في أوروبا آنذاك يطمح للوصول إلى المعرفة اليقينية ، وازداد ذلك الطموح حينما تعلم مختلف العلوم كالآداب ، والمنطق ، والرياضيات ، ورغم أنه كان يقر بفضل مدرسته هذه عليه ، ويعلن أيضا عن إخلاصه لأساتذته ، إلا أنه ومع ذلك بدا له أنه لم يستفد مما اكتسبه ولم يقتنع بما تعلمه .

إن الشك في قيمة المعرفة، ومختلف المعارف التي تلقاها، كان يراوده دائما، حيث نجده يعترف هو شخصيا بذلك في قوله: **<< ولكنني لم أكد أنهي هذه المرحلة من الدراسة ، وهي المرحلة التي جرت العادة أن يرفع الطالب في نهايتها إلى مرتبة العلماء ، حتى غيرت رأيي**

تماما ذلك لأني وجدت نفسي في ارتباك من الشكوك والأخطاء بدا لي معها أنني لم أفد من محاولتي التعلم إلا الكشف شيئا فشيئا عن جهالتي >> [11].

ومن هنا اشترط (ديكارت) إقامة العلوم على أسس ثابتة وواضحة ، ابتداء بشكه في الحواس . فما هي هذه الأسس ؟

– الشك في الحواس :

لاحظ (ديكارت) أن الحواس لا تنقل لنا بأمانة وصدق كل الأشياء كما هي ، وهذا يعود إلى نسبيتها ومحدودية قوتها ، ناهيك عن أنها تخدعنا أحيانا ، ومن هنا لا يجب الوثوق بها معلنا ذلك صراحة بقوله :(**فلما لا يكون الخداع مستمرا فإنه لمن الحكمة ألا نضع ثقة تامة بأولئك الذين خدعونا مرة واحدة**) [12].

وعلى هذا الأساس فالحس عند (ديكارت) فكر غامض مبهم لا يمكن أن يقودنا إلى اليقين ، وفي ذلك يقول : **<< وهكذا فإني لما رأيت أن حواسنا تخدعنا أحيانا، فرضت أن لا شيء هو في الواقع على الوجه الذي تصوره لنا الحواس >>** [13].

ونشير هنا من باب التذكير فقط أن إمام الفلاسفة (أبو حامد الغزالي) قد ذهب إلى رأي مشابه لهذا الرأي الديكارتي في كتابه (معيار العلم) حيث يشير أثناء مناقشته لمشكلة المعرفة عن خداع الحواس ، ويضرب لذلك بأمثلة كثيرة منها أن الحواس تدرك الشمس على أنها قرص صغير جدا ، وتبدو لها الكواكب وكأنها دنانير منثورة على بساط أزرق في حين أن العقل ببراهينه يعرف أن قرص الشمس أكبر من الكرة الأرضية .

وأن الكواكب أكبر مما تبدو لنا... الخ، وكذلك في كتابه (المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال) يقر صراحة بذلك في قوله:

<< من أين الثقة بالمحسوسات ، وأقواها حاسة البصر، وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفا غير متحرك وتحكم بنفي الحركة ؟ ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك وأنه لم يتحرك دفعة بغتة ، بل على التدريج ذرة ذرة ، حتى لم تكن له حالة وقوف ، وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيرا في مقدار دينار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار ، هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ، ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيبا لا سبيل إلى مدافعته فقلت قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضا >> [14].

هكذا إذن وكما نلاحظ شك كل من (ديكارت والغزالي) في المعرفة الحسية الناجمة عن الحواس والذي دفعهما معا إلى البحث عن بديل آخر يكمل نقص الحواس ، ويقي المعرفة البشرية من الوقوع في الخطأ ولو أن المقارنة في الحقيقة بينهما ليست موضوعنا هنا ، ولا تعنينا . ولكن من باب التذكير فقط كما ذكرت سابقا أن الشك المنهجي الذي يعد عملا حاسما في الفكر الغربي ، كان مرتبطا أيضا بالفلسفة الإسلامية في القرن الحادي عشر ، أي قبل (ديكارت) بقرون . ودون الذهاب بعيدا في هذه المقارنة أقول أن هذا الأخير ، أي (مفجر العقلانية في أوروبا) وبعد أن تبين له بشكل كامل نسبية الحواس وخداعها وعدم يقينيتها انتقل إلى مجال آخر عساه أن يشفي غليله في مسألة المعرفة ، ويصل إلى اليقين الذي ظل يطارده ، فانتقل إلى مجال آخر هو مجال المعقول .

لقد كان (ديكارت) يثق في علم الرياضيات، وهو علم عقلي بالدرجة الأولى، حيث نجده يقول:**<< كنت معجبا بالرياضيات خاصة لما في حججها من يقين وبداهة >>** [15].

لكن هذا الذي كان معجبا به ، والذي كان محل تسليم عنده تبين له ، وبعد أن عرضها للشك أيضا حتى شك فيها ، بما فيها الهندسة التي كان يعتمد عليها في مختلف استدلالاته على البداهة والوضوح ، والدليل على ذلك قوله :

<< لقد درست قليلا ، وأنا في سني الحداثة ، من بين أقسام الفلسفة المنطق ، ومن بين أقسام الرياضيات التحليل الهندسي والجبر، وهي ثلاثة فنون أو علوم خيل إلي أنها ستمدني بشيء من العون للوصول إلى مطلبي . ولكنني عندما اختبرتها تبين لي فيما يتعلق بالمنطق ، أن أقيسته وأكثر تعاليمه الأخرى لا تنفعنا في تعلم الأمور بقدر ما تعيننا على أن نشرح لغيرنا من الناس ما نعرفه منها ، أو هي كصناعة (لول Raymond Lulle) تعيننا على الكلام دون تفكير عن الأشياء التي نجهلها ومع أن هذا العلم يشتمل في الحقيقة على كثير من القواعد الصحيحة والمفيدة ، فإن فيه أيضا قواعد أخرى كثيرة ضارة وزائدة وهي مختلطة بالأولى بحيث يصعب فصلها عنها كما يصعب استخراج تمثال ديانا أو مينيرفا من قطعة من المرمر لم تنحت بعد ثم انه فيما يختص بتحليل القدماء ، وبعلم الجبر عند المحدثين ، ففضلا عن أنهما لا يشتملان إلا على أمور مجردة جدا ، وليس لهما كما يبدو أي استعمال ، فان الأول مقصور دائما على ملاحظة الأشكال ، لا يستطيع أن يمرن الذهن دون أن يتعب الخيال .أما الثاني فإنه مفيد بقواعد وأرقام جعلت منه فنا مبهما وغامضا يشوش العقل، بدلا من أن يكون علما يثقفه هذا ما حملني على التفكير في وجوب البحث عن طريقة أخرى تجمع بين مزايا هذه العلوم الثلاثة، وتكون خالية من عيوبها >> [16].

وبالفعل فقد سار (ديكارت) في هذا الطريق ، وشك في مختلف العلوم التي تلقاها ، أو العلوم القديمة ، ولكنه لم يستطع أن يدوم على شكه هذا ، إذ أنه وبعد رحلته هذه بدأ يتبين له الخيط

الأبيض من الأسود فوصل إلى أن هذا العقل البشري بإمكانه إدراك المفاهيم البسيطة والتي تمثل حقائق بالنسبة له لا يشك فيها، مثل متوازي الأضلاع محيطه (مجموع ضلعين غير متوازيين) ×2 ، وأن (ثا) هي الوحدة الأساسية لقياس الزمن .

هذه الحقائق وغيرها افترض (ديكارت) عدم صحتها مثل ما افترض عدم وجود الشكل واللون والزمن والمكان ، لأننا إذا فصلنا العقل عن الوجود فلا أحد يضمن لنا أن خمسة عشر هي (10+5)-15.

وذلك انطلاقا من المبدأ الذي ارتضاه، والذي يتمثل في عدم الاعتراف بصفة العلم اليقيني إلا للمعرفة المستمدة من مصدر مؤكد وغير قابل للشك على الإطلاق ، كالمعارف الفطرية .

كما أن هذا العقل الذي يعتبره هو أعدل الأشياء توزعا بين الناس، لا يكفي أن يكون هذا العقل جيدا بل لا بد من توجيهه وتطبيقه تطبيقا حسنا وسليما ، لأن العقل في ماهيته هو القدرة على الحكم الصحيح، وهو يطمح دائما إلى اليقين، رغم أنه محدود القوى.

وإذا كان (ديكارت) يتفق مع إمام الفلاسفة (الغزالي) في خداع الحواس و نسبيتها ، فإنه في مسألة العقل ينحو منحى مخالفا له ، إذ دفعته هذه المشكلة إلى التفكير في مسألة أخرى وهي ، كيفية التمييز بين اليقظة والنوم حيث نجده يرى أنه ليست هناك إشارات للتمييز بينهما ، وهذا أدى به إلى التساؤل عما إذا كانت هناك معارف عقلية صادقة سواء كان الإنسان نائما أو مستيقظا ؟ . فظهرت له حقيقة ثابتة وراسخة تجسدت في الأفكار الفطرية أو الطبيعية Idée Innées ، ومنها الكوجيتو (أنا أفكر إذن أنا موجود) ، وفكرة الكائن الكامل ، وغيرها .

علاوة على هذه الأفكار الفطرية نجد الأفكار الحسية الانطباعية Idées Adventices وهي التي تجعل الإنسان يتصل بها بالعالم الخارجي بواسطة الحواس، و كذلك الأفكار الخيالية أو المصطنعة .Idées Factices.

هذه الأفكار الخيالية رفضها (ديكارت) لكونها غير مجدية وغير صالحة لتأسيس معرفة علمية حقيقية لأن منطلقاتها ومصدرها المخيلة .

ومن ثمة لا وجود لها في الواقع عكس الأفكار الفطرية التي لا تثير أدنى شك في صحتها ، لكونها واضحة ، بديهية بذاتها ، حتى وإن حاولنا توضيحها ، فإنه يستحيل أن نجد ما هو أوضح منها لنبرهن به عليها كالأفكار الحدسية ومنها الكل أكبر من الجزء ، والشيء لا يوجد من لا شيء ووجود النفس ، ووجود الله ، والعالم الخارجي ... إلخ .

ناهيك عن فكرة (الكوجيتوCogito) ، هذا الأخير الذي انطلق من : (أنا أفكر إذن أنا موجود) لم يصل إليها (ديكارت) ، عن طريق برهاني ، وإنما ظهرت له كشعاع في ظلمات الشك حيث تراءت له بشكل حدسي اقتضت الإيمان بها ، واعتبارها حقيقته الأولى التي وجدها وجددها في :(كونه يشك في كل شيء إلا أنه لا يشك في كونه يشك)

ومن هنا وبعد أن قطع أبو الفلسفة الحديثة مراحل كبيرة في شكه هذا ، واكتشف حقيقته الأولى التي كان يفتش عنها ، يتبادر إلى أذهاننا الأسئلة الآتية:

- **أولا: ما علة هذا الشك؟**
- **ثانيا: وما نهاية هذا الشك؟**
- **ثالثا : كيفية بداية اليقين الذي سيصل إليه بطبيعته .**

وبطريقة أخرى ، بعد ما طبق (ديكارت) الشك ، كيف تأتى له الخروج من مأزق هذا الشك إلى مأمن اليقين ؟

لقد كانت الخطوة الأولى والأساسية بالنسبة (لديكارت) إقامة وتأسيس منهج خاص به بهدف استخدامه .

وبالفعل كما ذكرت سابقا ، فبعد أن شك في المعارف التي تلقاها في مدرسة (لافليش) وبعد ما كان يتخبط في متاهات شكوكه ، كان يبحث عن الخلاص الذي ينقذه من ذلك ، حيث نجده قد اهتدى إلى شك لا يمكن الشك فيه عن طريق الكوجيتو ، وهو وجوده الخاص .

هذا الوجود الخاص عبر عنه (ديكارت) أحسن تعبير بقوله :

<< ثم إني أمعنت النظر بانتباه في ما كنت عليه ، فرأيت أنني أستطيع أن أفرض أنه ليس لي أي جسم وأنه ليس هناك أي عالم ، ولا أي حيز أشغله ، ولكنني لا أستطيع من أجل ذلك أن أفرض أنني غير موجود ، لأن شكي في حقيقة الأشياء الأخرى يلزم عنه بضد ذلك ، لزوما بالغ البداهة واليقين ، أن أكون موجودا ، في حين أنني ، لو وقفت عن التفكير ، وكانت جميع متخيلاتي الباقية حقا ، لما كان لي أي مسوغ للاعتقاد أنني موجود >> [17]. وهذا يعني أن الشك يستلزم التفكير، وهذا الأخير يقتضي الوجود، أي أننا لا نستطيع أن نفترض أننا غير موجودين حين نشك في جميع الأشياء وعلى هذا الأساس فالشك دليل على الوجود باعتباره ضربا من ضروب تفكير هذا (الأنا) .

هذا الأنا إذن لا بد وأن يكون موجودا وأن هذا الوجود يقتضي التفكير .

وبطريقة أخرى إذا كنت أفكر فأنا موجود حتى ولو كان العالم الخارجي غير موجود، وإذا كان العالم الخارجي موجودا، وكنت لا أفكر فإني لا أكون حينئذ موجودا.

والرابطة بين الفكر والوجود كما نلاحظ تدرك عن طريق الحدس لا بالقياس (ولقد أخطأ "غسندي" في زعمه أن الكوجيتو قياس منطقي حذفت مقدمته الكبرى ،وهي (كل من فكر فهو موجود)

فكأن الكوجيتو قياس على الوجه الآتي :

كل من فكر فهو موجود – وأنا أفكر – إذن أنا موجود.

وهذا خطأ ، لأن لفظ (إذن) لا يقتصر في الكوجيتو على ربط النتيجة بالمقدمة ، بل يشير هنا إلى ما بين الفكر والوجود من صلة وثيقة ، ونحن ندرك هذه الصلة بالحدس لا بالقياس .

فالأصل في الكوجيتو ليس إذن هذه القضية العامة :**<< كل من فكر فهو موجود، وإنما هو الإدراك المباشر للصلة الوثيقة بين الفكر والوجود >>** [18].

إذن وكما يتراءى لنا هنا أن هذه صارت أول حقيقة يقينية ظهرت له، وهي حقيقة ثابتة، ويقين لا يسبقه يقين، بمعنى أنها حقيقة حدسية، والوجود فيها متضمن في الفكر، وفي هذا يقول:

<< ولما رأيت أن هذه الحقيقة: أنا أفكر، إذن أنا موجود، هي من الرسوخ بحيث لا تزعزعها فروض الريبيين ، مهما يكن فيها من شطط ، حكمت بأنني استطيع مطمئنا أن اتخذها مبدأ أولا للفلسفة التي كنت أبحث عنها >> [19] .

مميزا بذلك بين هذا الجوهر المفكر وهو النفس، والجوهر الممتد وهو البدن (الجسم)، أي أن (أنا أفكر إذن أنا موجود) تصبح قضية يقينية بالضرورة.

وعلى هذا الأساس أيضا نلاحظ تطابقا بين الماهية والوجود ، أي بين التفكير والوجود ويصبح الإنسان يشك في كل شيء ، ولكن لا يشك في كونه يشك ، لأنها حدس عقلي لماهية الذات أو الأنا المفكرة .

وبذلك تجاوز (ديكارت) مختلف الآراء التقليدية التي كانت سائدة قبله ، والتي كانت تقسم الإنسان إلى ثلاث قوى : الروح ، النفس ، الجسد .

- **الروح الذي يعنى به العقل.**
- **النفس الذي يعنى بها الشعور.**
- **الجسد الذي يعنى به الحساسية.**

وأن النفس والبدن متلازمان. أما (ديكارت) فقد فصل بينهما في ثنائيته الشهيرة ، واعتبرهما جوهرين مختلفين تماما.

ويعتمد صدق المعرفة الأولى وهي الفكر أو الروح على الوضوح أو التمييز ، وتعي الذات نفسها بالتفكير على أساس الحدس العقلي الذي يكشفه نور العقل الطبيعي .

والمقصود بهذا الأخير (أي الحدس– Intuition)هو الذي يدرك به المرء أنه موجود كحقيقة بديهية منبثقة عن نور العقل الفطري ، وعلى هذا يصبح الحدس تلك المعرفة المباشرة الواضحة بذاتها ، المتميزة التي ترى فعلا الشيء حقيقة على طبيعته وماهيته ، بعيدا عن الأوهام والخيال .

أما البدن فهو آلة جسمية إن جاز هذا التعبير مستقلة في مختلف وظائفها الحياتية .

وإذا كان الحدس هكذا فإن الاستنباط عملية ربط وتنظيم لمعارف يقينية ، إلا أنه أقل يقينا من الحدس ، لأن الحداسة إن جاز هذا التعبير بداهة عقلية حاضرة تعتمد على الفهم ، بينما

الاستنباط ترتيب حدوس مترابطة ، وبالتالي إذا بني الاستنباط على المعارف الحدسية اليقينية يمكن حينئذ أن نعتبر المعارف الاستنباطية يقينية أيضا .

وإذا ما أمعنا النظر جيدا في كل منهما، يبدو لنا أن الاستنباط في مقابل الحدس، بل هو نده.

لكن في الحقيقة ليس كذلك على أساس أن القاعدة الرابعة من قواعد المنهج الديكارتي (أي قاعدة المراجعة أو الإحصاء) تؤكد على ضرورة مراجعة جميع عناصر الموضوع المدروس للتيقن منه.

هكذا إذا أصبح الكوجيتو الديكارتي هو الحقيقة الأولى التي يرتكز عليها بناؤه ومنهجه الفلسفي ، بل هي مفتاح النسق الديكارتي .

هذا الحدس الذي تبجح به (ديكارت) يخطئ هو أيضا على غرار الحواس ، وعلى غرار العقل أكان في المجال الفلسفي ، أو في المجال العلمي الذي يتصف بالدقة .

وعلى سبيل المثال لا الحصر كم هي النظريات الفلسفية المختلفة، والمتضاربة أحيانا، والتي حاولت تفسير الوجود، كالفلاسفة الوجوديين ؟

فهذا (كيركغارد) أبو الوجودية المعاصرة له مفهومه الخاص للوجود ، وذاك الوجود السارتري (نسبة لجون بول سارتر) ، وهذا (هيدجر) وغيرهم .

لكن ما يهمنا هنا هو الوجود الديكارتي ، إذ بعد أن برهن "ديكارت" على الوجود الخاص للإنسان ، راح يبحث عن الوجود الواقعي والمتمثل في العالم الخارجي، وواجد هذا الوجود(الله) .

يرى " ديكارت" أنه يمكن للإنسان أن يشك في الأشياء غير المرئية وغير الواقعية ، ولكن من غير المعقول أن يشك في أشياء يراها أمامه ، ويلمسها ، ويشمها ، ويسمعها ... الخ بمعنى يشك في موضوعات ومحتويات العالم الخارجي ؟

كما يرى "ديكارت" أن وسيلتنا للاتصال بهذا العالم الخارجي هي الحواس ، وهذه الأخيرة قد تخدعنا كما ذكرت آنفا ، ومن هنا لن نكون على يقين بوجود هذا العالم ، وفي ذلك يقول "ديكارت" :**<< جربت هذه الحواس في بعض الأحيان فوجدتها خداعة ، ومن الحكمة أن لا نطمئن كل الاطمئنان إلى من خدعونا ولو مرة واحدة >>** [20]. لقد انطلق "ديكارت" من وجود الذات (الكوجيتو) ليبرهن على وجود الله ، وإثباته لوجود الذات قبل وجود الله كان لحاجة معرفية . أما من الناحية الأنطولوجية فكانت أسبقية الله قبل وجود الذات ، ليصل "ديكارت" إلى أن جميع معارفنا التي يستنتجها بعد وجود الذات ووجود الله إنما تعتمد على مبدأ الصدق الإلهي . وبذلك ينتقل من اليقين بوجود الله ومن عدم خداعه ليثبت وجود العالم الخارجي وفي ذلك يقول " **<< يبدو لي أن أمامي الآن طريقا سينقلني من تأمل الإله الحق إلى معرفة باقي الأشياء في الكون. وإنما كأشياء موجودة ومشخصة. وأول سؤال يثار هو: هل من الممكن أن تكون مثل هذه الأشياء موجودة مستقلة عن الجوهر المفكر يعني عقلي، وخارجة والأفكار التي لدي عن مثل هذه الأشياء ؟ >>** [21] .

ويستند "ديكارت" في إثبات وجود أشياء العالم المادي إلى دليلين هما :

أولا : لا شك أنني أملك صياغة إدراكات حسية متنوعة ، أي أفكارا عن الموضوعات الحسية وكيفياتها .

ثانيا : يعتقد "ديكارت" بأنه لدي ميل واضح بأن هذه الأفكار محدثة بواسطة موضوعات حقيقية خارجية عني . ولما كان الله هو الذي منحني هذا الميل القوي جدا لاعتقد أن تلك الأفكار تنشأ من الموضوعات المادية ، وليس من مصدر آخر ، وإذا كان الله علة وجودي ، فمن المستحيل إذن أن الله يخدعني، وعلى هذا الأساس نصل إلى الإقرار بوجود العالم الخارجي المادي .

هكذا وبعد أن اثبت "ديكارت" وجود هذا العالم الخارجي ، انتقل إلى تحديد طبيعة وماهية هذا العالم المادي الحسي ، فوضح أن وجوده الحقيقي لا يتمثل في ما نلاحظه من أصوات وألوان وروائح ، ولكن حقيقته متجسدة في امتداده ، وفي ذلك يرى "ديكارت" :<< **إن طبيعة الجسم لا تكمن في الوزن والصلابة واللون وغيرها، ولكن من امتداد وحسب... في جوهر ممتد ..>>** [22] .

وهكذا نلاحظ أن العلم الطبيعي في عصر النهضة يصور لنا العالم مكونا من أجزاء ممتدة ، وجزيئات متحركة ، ومن ثمة فالامتداد حسب " ديكارت" كان يعتبر الكيفية المادية الوحيدة التي يمكن أن تتعقل أو تدرك رياضيا ، وأن الكيفيات الأخرى غير ضرورية لطبيعة الأجسام .

إن البرهان على إثبات وجود العالم الخارجي عند ديكارت قائم في ماهيته على أساس النزعة الإيمانية المتمثلة في الصدق الإلهي حتى يتخلص من إمكان الخداع . ولو تأملنا قليلا دور فكرة الله في ضمان وجود العالم الخارجي، لوجدنا أن المقصود من هذه الفكرة هو في أغلب الأحيان حل مشاكل خلقتها فكرة الله ذاتها أو أفكار أخرى مشابهة. (23).

لكن هل هذه المدركات الناتجة عن العقل وعن الحدس، وهل مختلف المعارف الفطرية كافية حتى يمكن الوثوق منها ؟

ألم يسبق لـــ (غاليلي 1564 – 1642) أن فسر سرعة سقوط الأجسام عن طريق إقامة علاقة تناسب طردي بينها ، وبين المسافة التي تقطعها ؟ ثم ألم يكتشف هو ذاته أن هذه الفرضية متناقضة لا بد من الإعراض عنها؟ على هذا الأساس إذن يمكننا القول أننا نشك في كل المعارف بما فيها المعرفة الحدسية، وأنه يجب علينا أن لا نتسرع، ونندفع، أو نتبع الارتجال والهوى. بل توخي الحذر والحيطة ، فالعلم من طبيعته النسبية .

والحدس في ماهيته ليس وحيا سماويا مقدسا، وإن كان البعض يعترض على هذا الكلام بحجة أن هناك الحدس النفسي الخالص الذي يطلع به الشخص على ذاته.

لقد نقد العديد من الفلاسفة هذه المعرفة الناجمة عن الحدس ، التي قال بها (ديكارت) ، والتي اعتبرها بديهية واضحة مقنعة .

وسوف أكتفي هنا في هذا المجال بذكر نموذجين من أنصار النزعة التجريبية عساها أن توضح لنا الغرض من ذلك . يرى " دافيد هيوم " بأنه ليس كل الأشياء فطرية فينا ، بمعنى أننا لا ندرك الأشياء بهذا النور الفطري ، وأن الطريق الصحيح والوحيد لبلوغ اليقين ، لا يقتصر ولا يتوقف على المنهج الحدسي إن كان منهجا .

ولكن لبلوغ اليقين لا بد من رابطة تربط بين الحوادث الواقعية بمختلف أنواعها، وفي مختلف المجالات الطبيعية والحياتية للإنسان، وهذا لن يتأتى إلا بالاعتماد على الخبرات الحسية للإنسان في كل ما يصل إليه من حقائق. بمعنى أن الحوادث ليست حدسية.

وبلغة الفيلسوف الألماني " ايمانويل كانط " معارفنا و إدراكاتنا ليست قبلية ، فهي لا تدرك بالنور الفطري كما أرادها " ديكارت " ، وفي هذا يقول " دافيد هيوم " في كتابه الشهير " مبحث في الفاهمة البشرية " :<< **فلا يمكن للأعمى أن يعطي أي فكرة عن اللون، ولا الأصم أي فكرة عن الصوت. ولكن أعد للواحد والآخر الحس الذي ينقصه وستفتح بفتحك مسربا جديدا للإحساسات ، مسربا لأفكار أيضا ، ولن يجد الواحد صعوبة في تصور تلك الأشياء**) [24].

ويقول أيضا :<< **فكل تعليلاتنا المتعلقة بالواقعة هي من الطبيعة عينها . وهنا يفترض باستمرار أن ثمة اقترانا بين الواقعة الحاضرة وما نستدل عليه منها ، وحين لا يكون هناك**

شيء يربطهما معا يكون التعليل غير مستقر بالمرة. إن سماع صوت واضح اللفظ وحديث معقول في الظلمة ، يؤكد لنا وجود شخص ما . لماذا ؟ لأن ما سمعنا هو من آثار فعل الإنسان وصنعه، وهو على اقتران وثيق بهما >> [25].

وإلى مثل هذا الرأي ذهب الانجليزي(**جون لوك J – Locke 1632 – 1714**)وهو أيضا ذو نزعة تجريبية. يرى هذا الأخير أن هناك مسائل تتجاوز حدود العقل البشري، والإنسان الذي يريد أن يتعمق بما يملكه من أفكار في بعض الأمور التي تفوق طاقته، إنما يكون بعيدا عن طريق اليقين، والنتيجة المترتبة عن ذلك هي تخبطه في الشك.

وهذا ما حصل لديكارت . ولذلك نجد هنا أن (جون لوك) له رأي آخر مخالف تمام المخالفة لرأي أبي الفلسفة الحديثة . فهو يرى بأن الأفكار مصدرها العالم الخارجي، وفي ذلك يقول: **<< إن عقل الطفل يكون خاليا تماما من الأفكار ، قبل أن يستقبل أي إحساسات من حيث إنها نتيجة مثير لأعضائه الجسمية ، فهو أشبه بخزانة فارغة من الأدراج أو صفحة بيضاء لم يطبع عليها شيء >>** [26] .

ودون الذهاب أو التعمق في محتوى الاتجاه التجريبي ، نقول بالمختصر الشديد أنهم رفعوا شعارا شهيرا تمثل في أن : (**لا شيء في الذهن ما لم يكن في الحواس**) . وما يمكن أن نصل إليه في ختام هذا العمل المتواضع ، هو أن (ديكارت) ومن خلال نسقه ومنهجه الفلسفي ساهم في دفع تطور الفكر البشري . كما قاوم سلطان القدماء، وسلطة التقليد.

ولو تأملنا جيدا منهجه هذا لوجدناه يجمع ما بين البعد الرياضي التحليلي ، وبين البعد الميتافيزيقي ، لأن إدراك اليقين في المجال الميتافيزيقي يقتضي إخضاع موضوع البحث لطرق شتى مع تأمله من زوايا شتى .

كما كان منهجه الشكي هذا يعبر في الحقيقة عن الدقة التي يتميز بها العقل البشري ، إذ لا وجود لما يسمى بالمطلق ، فالمطلق في ماهيته مجرد تصور أوجده العقل البشري ليس إلا .

أما النسبي فهو معطى واقعي، والدليل على ذلك أن المعرفة البشرية في تطور مستمر.

كما أن الطريقة التحليلية الرياضية سمحت بطرح المسائل طرحا تسلسليا بمقتضى منهجه الذي وضعه.

و حتى الكوجيتو (أنا أفكر إذن أذن أنا موجود) هو نفسه أيضا في ماهيته إعادة طرح جديد لطبيعة العلاقة بين الفكر والوجود ، حيث ساهم (ديكارت) في تخليص هذا الأخير ، أي الوجود من البحث في ماهيته ومصدره ، إلى البحث في العلاقات الذاتية التي يحتويها هذا الوجود وبذلك أحدث قطيعة معرفية مع التراث ، وذلك من زاويتين :

1- من ناحية المنهج :

حيث برهن أن العلوم تطورت بشكل كبير في العصر الحديث ، وأن الاختراعات العلمية بلغت فيه مستوى غير مسبوق ، وبالتالي تبين له أن المنطق الأرسطي لم يعد مسايرا وصالحا للفكر البشري في العصر الحديث ، عصر الاختراعات ،والإبداع ، والحرية .

2- من الناحية الفلسفية:

علاوة على نقده للفلسفة الأرسطية ، نجده قد نقد الفلسفة اللاهوتية الوسيطية وخاصة فلسفة القديس (توما الإكويني) ، وذلك بتفجير مختلف القدرات الكامنة في العقل البشري ، واعتباره المبدأ الأول ، بل وأساس كل معرفة إنسانية .وبذلك يمكن لنا القول أن (ديكارت) أحدث ثورة فعلية أيضا ، قلب فيها الكثير من المفاهيم التي كانت الفلسفة مؤسسة عليها حتى تلك اللحظة .

إن الكوجيتو الديكارتي (أنا أفكر إذن أنا موجود) هو وعي بالوجود الأول المباشر ، وبذلك وضع ديكارت نهاية لتفكير القدماء حيال فكرة الوجود ، وصار الاهتمام بالمعرفة التي أصبحت أولى من الوجود . فالمعرفة عندهم أولى من الوجود. هذا الوجود هو الذي جر الإنسان إلى الدخول في متاهات الميتافيزيقا، دون أن يخرج منها بنتيجة تضع حدا لشغفه الفكري، وجعل من دراسة ومعرفة الوجود صدارة اهتمامات ذهنه ودراساته الفلسفية فترة طويلة أخذت الكثير الكثير من تفكير الإنسان ، عوض أن يعود إلى ذاته العارفة. وإن كان هذا الوجود لم يعد عنده متجسدا في العالم المادي الخارجي ، بل في ثنايا الفكر والنفس .

وعلى هذا الأساس يعتبر (ديكارت) في الحقيقة همزة وصل بين نسقين فلسفيين :

1- نسق مصدره اليونان طرح مسألة الوجود وأصله.
2- ونسق حديث طرح طبيعة وأصل المعرفة.

وإذا كان البعض يأخذ على (ديكارت) مبالغته في المنهج الحدسي واعتباره طريقا موصلا لليقين وإيمانه بالعقل كقوة خلاقة مبدعة في الفكر الفلسفي ، فهذا لا يعني التقليل من المناهج الأخرى . ولكن بشرط أن يقوم كل اتجاه على منهج محدد واضح المعالم كما فعل (ديكارت) ولا غرو ولا عجب بعد ذلك أن نجد مثلا في التجربة الصوفية عمقا قد لا نجده عند مفكرين آخرين آثروا طرقا أخرى . ويكفي (ديكارت) فخرا أنه خلص الفكر الأوروبي من الفكر اللاعقلاني الذي سيطر عليه لعهود خاصة تعاليم الكنيسة .

إن (ديكارت) أو غيره من الفلاسفة هم أولا وأخيرا بشر ، وليسوا بقديسين ، ولو كانوا كذلك لكانوا معصومين من الخطأ . ولكن مع ذلك نجد أن ما قدموه من أفكار حية دليلا على أهميتهم ، وتقديرنا لهم ، لأن أعظم ما يؤدي إلى تقدير الفيلسوف حق قدره أفكاره وفلسفته . وهذا ما ينطبق على (ديكارت) مفجر العقلانية في أوروبا ، وأبي الفلسفة الحديثة .

إذا الشك الديكارتي حافل بالفضائل الأخلاقية ، حيث نلتمس منه قيمتين: قيمة تربوية وقيمة أخلاقية محضة . ذلك أن الإنسان حينما يشك إنما يتعود على عدم قبوله مختلف المعارف إلا بعد تمحيص ونظر، فيبتعد بذلك عن الزلل والأخطاء، ويقترب قدر المستطاع من الحق والحقيقة، وثانيا يكتسب عاملا هاما وهو عدم الاعتماد على الغير، فيصبح مسؤولا عن أفكاره. ، فالشك يهذب الأرواح ويربيها بهدف نشد الموضوعية، ومراقبة الأهواء.

الهوامش :

1. وليم كلي رايت: تاريخ الفلسفة الحديثة . ترجمة محمود سيد أحمد ، تقديم ومراجعة إمام عبد الفتاح إمام ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 2010 ، ص 93 – 94 .

2- رينيه ديكارت : مقالة الطريقة لحسن قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم ، ترجمه إلى العربية وقدم له وعلق عليه جميل صليبا الطبعة الثانية ، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع ، بيروت ، 1970 ، ص36.

3- نفسه ، ص 37

4- نفسه ، ص 38

5- نفسه ، ص 27

6- محمود حمدي زقزق : المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، 1973 ، ص 74.

7 – ديكارت: مقالة الطريقة ،ص 80 ، 82 .

8- نفسه ، ص 70.

9- نفسه ، ص .70

10 - نفسه ، ص 92- 93 .

11- نفسه ، ص 76.

12 - حنفياف روديس لويس : ديكارت والعقلانية ، ترجمة عبده الحلو ، دار منشورات عويدات بيروت، الطبعة الثانية ،1977 ، ص 34.

13 - ديكارت ، مقالة الطريقة ، ص 132.

14 - محمود حمدى زقزوق : المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت ، ص87 .

15 - ديكارت : مقالة الطريقة ، ص 80.

16 - نفسه ، ص 98 ، 100 ، 102 .

" ريمون لول Raymond LULLE " راهب فرانسيسكاني (1235 – 1310) ، وهو مؤلف كتاب (الصناعة) المشتمل على حقيقة المسيحية ، والرد على منكريها ، وقد بالغ تلاميذ (لول) في هذه الصناعة حتى قلبوها إلى آلة يبرهنون بها على كل شيء . ص 100 مقالة الطريقة .

17 - نفسه ، ص 136.

18 - نفسه ، أنظر تهميش ص 134.

19 - نفسه ، ص 134.

20 – ديكارت : التأملات في الفلسفة الأولى ، التأمل الأول ، ت/ عثمان أمين ، المطبعة الفنية الحديثة ، ط/4 1969 ، ص 73،72 .

21 – شاخت ريتشارد : رواد الفلسفة الحديثة ، ترجمة أحمد حمدي محمود ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب 1997 ، ص 47 .

22- Descartes Principales Pt.2. Prop.4. In Colkins .M.W the The persistent problems of Philosophy Op. cit

23 – زكريا فؤاد : نظرية المعرفة والموقف الطبيعي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1962 ،ص 77 ، 83 .

24 - دافيد هيوم ، مبحث في الفاهمة البشرية ، ترجمة موسى وهبة ، دار الفارابي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى 2008 ، ص 15 .

25 – نفسه ، ص 22 .

26 - وليم كلي رايت: تاريخ الفلسفة الحديثة ، ص 159 .